بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول هذا الكتاب عرضاً مركزاً وشاملاً لتاريخ العالم العربي في العصر الحديث، ويغطي فترة تاريخية تبلغ نحو أربعة قرون، تبدأ بالفتح أو التوسع العثماني في بلاد الشام ومصر (١٥١٦- ١٥١٧) وتمتد حتى بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨). ويلاحظ أن تاريخ العرب خلال هذه الفترة قد مرّ بمرحلتين واضحتين أولهما المرحلة التي انفرد فيها الأتراك العثمانيون بحكم العالم العربي، بعد ضمه إلى دولتهم، حيث مارسوا عليه حكماً مباشراً، أو نوعاً من السيادة، واستمرت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثامن عشر، أي أنها بلغت نحو ثلاثة قرون إلا قليلاً. وثانيهما مرحلة النفوذ والاستعمار الأوروبي، التي بدأت مع أول غزوة استعمارية أوروبية للعالم العربي في العصر الحديث، وهي الحملة الفرنسية على مصر والشام (١٧٩٨- ١٨٠١)، لأنه بمجيء هذه الحملة، بدأ التدخل الأوروبي في العالم العربي، وذلك التدخل الذي انتهى إلى استعمار معظم أقطاره طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مما يشكل عنصراً حاكماً ومؤثراً في مسيرة التاريخ العربي الحديث، وهو ما انعكست آثاره بطبيعة الحال على علاقة العرب بالدولة العثمانية، وساهم في إضعاف هذه العلاقة، حتى بلغت، بفعل عوامل أخرى أيضاً، مرحلة الصدام بينهما قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها. وباختصار يبدأ الكتاب بضم العثمانيين العالم العربي، وينتهي بثورة العرب القومية عليهم عام ١٩١٦، وهي الفترة التي يصطلح المؤرخون على تسميتها بـ«تاريخ العرب الحديث».

وقد توقف الكتاب زمنياً عند بداية الحرب العالمية الأولى، حيث بدأت بها مرحلة جديدة هي مرحلة تاريخ العرب المعاصر، التي تميزت باشتراك العرب في الحرب العظمى، وقيام ثورتهم الكبرى ضد الدولة العثمانية أثناءها، ثم وقوع معظم البلاد العربية تحت أشكال من السيطرة الأوروبية، من حماية ووصاية وانتداب، وما نتج عن ذلك من إعادة رسم خريطة جديدة لمعظم بلاد الشرق العربي، ونشوء حركات التحرر الوطني التي ناضلت من أجل الحرية والاستقلال.. وهي مرحلة تقتضي كتاباً خاصاً على كل حال.

ويتضمن هذا الكتاب بفصوله الستة، موضوعات رئيسية أربعة اختص أولها بدراسة تاريخ الدولة العثمانية، نشأتها وتطورها، وتوسعها في العالم العربي، كما يتناول دراسة نظام الحكم العثماني وانعكاساته على العالم العربي. أما الموضوع الثاني فقد تناول دراسة أوضاع العالم العربي، مشرقه ومغربه، في ظل الحكم العثماني خلال الفترة من أوائل القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر. بينما تناول الموضوع الثالث دراسة تاريخ العالم العربي خلال القرن التاسع عشر، كما ركز على دراسة الحركات الإصلاحية الداخلية، وكذلك تغلغل القوى الاستعمارية الغربية في بلاده. أما الموضوع الرابع والأخير فقد اختص بدراسة يقظة الفكر القومي العربي ونشأة وتطور الحركة العربية، منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى.

والواقع أن هذا الكتاب جاء نتاجاً لحصيلة من القراءات الواسعة والشاملة في مجاله، استغرقت نيّفاً وعشر سنوات، أثبت قائمتها في ذيل الكتاب، سواء تلك التي اقتبست منها بشكل مباشر، أو غير مباشر، أو تلك التي استفدت من مراجعتها على وجه العموم، ولعلني أوردتها كاملة خدمة للباحثين والطلاب، مؤثراً التخفيف من الحواشي والاقتباسات، حتى لا أثقل على القارئ، كما جاء هذا الكتاب أيضاً نتاجاً لخبرة عملية في تدريس موضوعاته في جامعة عين شمس ومعهد الدراسات العربية، وجامعة قطر، حيث أتاحت لي مهمة التدريس فرصة القراءة الغزيرة، وجمع المصادر، كما أدركت خلالها أن معظم المؤلفات التي تناولت نفس الموضوع وفترته الزمنية قد اهتمت بجانب دون غيره، أو بقطاع من العالم العربي دون آخر، كما أن منها من اهتم بسرد الأحداث والوقائع على حساب التحليل وتقديم رؤى تاريخية، أو أن بعضها صب هذه الأحداث والوقائع في إطار أيديولوجي معين،

لتأكيد وجهة نظر خاصة، ومع ذلك فقد أفدت منها جميعاً، كلٌ في مجاله وحسب اتجاهه، عند كتابة هذه الفصول.

وإنني إذ آمل أن يقدم هذا الكتاب معرفة تاريخية متكاملة ومتوازنة لتاريخ العرب خلال هذه القرون الأربعة، في عرض علمي يستند إلى منهج قويم، ذي طابع أكاديمي، وطابع ثقافي عام في آن واحد، فإنما أود التأكيد على أنه بالرغم من تركيزه على المعالم والأحداث الكبرى الفاصلة، إلا أنه لم يغفل التفاصيل الهامة والمؤثرة، كما أنني ضمنته ما اعتقدت من آراء ووجهات نظر، برزت خلال عرض الأحداث والوقائع، وخلال نسيج الدراسة، ولست أزعم أنها دائماً صحيحة، أو أن هذا الكتاب سيكون خالياً من بعض أوجه القصور، التي آمل تصويبها واستدراكها، ربما في طبعة لاحقة بإذن الله.

وأخيراً أراني مدين بكثير من الفضل والإقرار والعرفان والامتنان لأساتذتي وزملائي وأصدقائي في جامعة عين شمس ومعهد الدراسات العربية وجامعة قطر، سواء لإسهاماتهم العلمية مؤلفاتهم أو لمناقشاتهم الثرية والمناخ العلمي الذي توفر لي معهم جميعاً، كما أنني مدين بالشكر لصديقي الأديب المحقق الأستاذ محمد همام فكري الذي أحاطني باهتمام جميل وأخوة نبيلة، وكذلك لأخوتي الأعزاء الأستاذ حلمي أبو خيرة، والأستاذ أحمد عبد السلام، والأستاذ يحيى زكريا لتفضلهم بمراجعة تجارب الكتاب وإقالة الكثير من عثراته وضبط وتجميل بعض عباراته في محبة وصبر شديدين. أما أخي الأستاذ سامي كماله، الذي تحمل عناء تحويل المخطوط إلى هذه الصورة، ولم يضق ذرعاً بكثرة التعديلات والمراجعات، فله أصدق الشكر وأجمله.

ولله الفضل من قبل ومن بعد،

الدكتور أحمد زكريا الشلق

القاهرة أكتوبر ٢٠١٤